الفصل الأول

المنشأ

لن أنسى مساء ذلك اليوم من ربيع 1956، حيث اصطحبني صديق من حارتنا فيما بدا زيارة لقريب له، ولكي يقنعني بمصاحبته راح يناوش في داخلي رغبة في مقابلة "إفريقيين"، عبرت عنها قبلًا، وأنا المغرم بالقراءة في علم الأنثروبولوجيا، وما توحي به عن الثقافة "البدائية"، والفولكلور. كان صاحبي من أسرة ميسورة نسبيًّا، يستطيع أن يركب أوتوبيسات، ويزور أقارب بعيدين عن موقع منازلنا في حي السيدة زينب الشعبي الكبير، فدفع بي في أكثر من أتوبيس لنصل إلى "الزمالك" المعروف بالحي الراقي، ثم نمشي إلى هدفنا –"الرابطة الإفريقية"– في تفريعة من شارع 26 يوليو، وفي 5 شارع أحمد حشمت، وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه مع الأستاذ "محمد عبد العزيز إسحق" المشرف على هذا الصرح والأب الروحي لمجموعة الشباب الأفارقة من رواده.

بسرعة نسيتُ الهدف الاجتماعي لصاحبنا، وتحولت إلى فحص الحشد الصغير المحيط بالرجل من شباب سمر الوجوه. قلت لصديقي بعد ذلك، إنه ليس فيهم من ملامح "الزنوجة" أو السواد الأكحل، مما نسمع عنه، إلا شاب من نيجيريا وآخر من جنوب السودان، بينما تتدرج السمرة في الباقين من شباب الصومال وإريتريا، وتشاد والسنغال، حتى سمرتي الشخصية. وكشف الأستاذ "إسحق" عن أسلوبه الساخر دائمًا بأنه ليس من البيض بين الحاضرين إلا هو وفتحي صالح (صديقي)، وفي سخرية أكثر باعتبارهما من أبناء الصعيد، مشيرًا إلى المنيا، حيث أبناء الصعيد هم الأكثر سمرة في مصر، لكن أبناء المنيا يغلب عليهم البياض بتأثير مماليكي، أو ربما لبيان أرستقراطيتهم – بتأثير فرنسي!

لن أنسى كيف كانت ليلة خصبة بهذا الشكل، وكأنني فجأة في قلب حدث إفريقي. ذلك أني دخلت في الواقع تلك "الفيللا" الفخمة، الباقية من عصر الخديوي إسماعيل، تدلف بعد مدخلها الرخامي إلى بهو فسيح، يعكس قتامة الإهمال. وهذه المجموعة من الشباب تلتف حول "الأستاذ" وكأنهم تلك المجموعة من الوافدين الأفارقة حول "شيخ العمود" بالأزهر الشريف يتبادلون البيان حول الآيات البينات! لكن صاحبنا "الأستاذ" هنا، يشكل عالمًا آخر. وقد تعرفنا بسرعة، وهو ذلك العلماني الوفدي الأصل، مترجم كتاب "الحرية والدين"، المُصادر في منتصف الأربعينيات، يحدث الشباب حوله عن الاستعمار الإنجليزي، وألاعيبه في السودان، والتي

أدت إلى استبعاده شخصيًّا – وغيره – من جامعة "غوردون" (الخرطوم حاليًّا). ثم يبتسم وهو يقول في سخرية إنه عاد من السودان "بخفي حنين"! وقصد الإشارة إلى ذلكما الشابين من جنوب السودان ممن أحبهم وأحبوه، فجاءوا معه لدراسة الطب في القاهرة. وأنه بخروج مصر من السودان ستبدأ رحلة صعبة بالتأكيد...

كنت وقتذاك في السنة الثانية قسم الاجتماع بجامعة القاهرة، أقرأ في الأنثروبولوجيا، وأحب الفلسفة، وأحضر دروسها من كبار الأساتذة، كما أحضر أنشطة الفكر الأخرى. وها هي "الرابطة الإفريقية" تربطني بنشاط آخر، أرى الأنثروبولوجيا، تروي عن شعوب حية من شباب يتطلع لتغييرها، خاصة و"الأستاذ" إسحق، كان لا يقبل منهم فكرة تمجيد حالات البداوة والتخلف على أنها الواقع الهادي الجميل... ولم تتوقف مفاجآت الليلة العجيبة عند ذلك، فإذ بشاب من المجموعة يتقدم "للأستاذ" بورقة من "نيوزويك" بعنوان "القومية السوداء"... وأجد نفسي مندفعًا لتطوعي بترجمتها لاستثارتي من فكرة "قومية سوداء" في حشد يقول بالقومية الإفريقية، وفي منطقة القومية العربية..!

خرجت ليلتها من هذا المبنى – المفاجأة – وحدي، حيث غادر صاحبي مبكرًا لزيارات أخرى، وإذ بي، في شوارع صامتة وأقرب للظلمة... فسرها لي أحد الشباب ممن رأى أن يصحبني للشارع العام، بأن تلك تقاليد أوروبية، تتوفر في حي الزمالك بالطبع، وهو الذي كان معمورًا بالأجانب الأوروبيين،

ممن رحلوا بعد الثورة، وتركني لحال سبيلي عند الشارع العام... كان صعبًا أن أتنقل بين الأوتوبيسات، كما فعل صديقي للوصول إلى هنا، ورأيت عن بعد كوبري "أبو العلا" التاريخي الجميل، وأضواء المعالم على النيل، الممتد أمامي وأنا أعبر الكوبري، حتى مستشفى "قصر العيني" وكلية الطب القائمة فيها منذ ما قبل بداية القرن العشرين، والقريبة من حيِّنا. فقررت السير على الأقدام لبضعة كيلومترات... أتأمل حالي، وما جرى لي خلال عشرين عامًا من عمري وقتها حتى وصلت لهذا المكان.

من القرية

ابتسمت وأنا أتذكر – أثناء سيري – كيف كنت صبيًّا فلاحًا في "أبوكلس" من ملحقات دنشواي بالمنوفية، ثم جئت للقاهرة الصاخبة، أتنقل بين مدارسها الابتدائية والثانوية، حتى الجامعة، في حلم لم يكن متوقعًا... حلم بحق... لأني أذكر تلك الليلة وقد اقترب الفجر في شتاء 1947/ 1948، وإذ بأبي وأمي يصحوان من حلم أو كابوس، في شكل "خناقة" عن ضرورة الرحيل من هذه القرية، التي شعرنا فيها بالفقر، لنعيش مع بقية إخوتي في القاهرة ونلم معاشنا، وأن هذا "الواد" أو الابن الأصغر – الذي هو أنا – لا بد، في رأي أمي، أن يتعلم في مدارس حكومية حديثة، ولن يذهب إلى الأزهر ليصبح شيخًا (فقي، بتعبيرها) إلى مابدا أنها تقول: على جثتي...! رغم أني حفظت معظم أجزاء القرآن، وأهلني أبي فعلًا

بعد استكماله لعبور امتحان القبول بالمعهد الأزهري القريب كما فعل هو لبضع سنوات في الأزهر. لكن السيدة صممت، وللنساء الكلمة العليا في المنازل الريفية خاصة! وانبلج الفجر، وشعشعت الشمس مع ما يبدو اتفاقًا على تغيير وضع العائلة تمامًا...

كان القسم القروي يضمني مع بنتين (فاطمة ورقية) في رعاية الأب "الحاج محمد" والأم "نفيسة محمود"، والقسم الحضري في القاهرة حي السيدة زينب يضم أختي زينب الكبيرة المتحضرة فعلًا والتي تلبس على الموضة وتدرس في "مدرسة السنية" للبنات، أول مدارس البنات الكبرى في مصر "والأخ أحمد" خريج المعاهد الفنية الزخرفية، ويعيشان وحدهما في القاهرة. كان أخي لا يحب القرية ونادرًا ما يأتي زائرًا، ويسخر من احتمال أن أستمر "فلاحًا". أما أختي فتأتي في الصيف لتقضي بعضًا من الإجازة، تلبس الفساتين القصيرة، وبنصف كُمّ، وشعرها المنساب يمنحها فرصًا جمالية أفضل. أقول ذلك لأنها بنت "الحاج محمد"، ذي المكانة الوقورة بل والدينية في القرية، ولا تعليق من أحد على ذلك في تلك الفترة، المستنيرة من الحياة المصرية. بل وقد أعجب بها فترة الشيخ "سيد المغربي" شيخ إحدى الطرق الصوفية الذي يُستدعى في المناسبات الكبرى بالقرية، من حصاد أو زواج. وأذكر أن زينب وأمي رفضاه بقوة، لأن "البنت" عينها على الزواج من أحد الأفندية في المدينة فانتهت إلى "زكي أفندي" مدرس الثانوي في مصر (القاهرة) – وكانت "القاهرة" وما زالت في الريف هي

"مصر". "المُدرِّس" في مصر أفضل من شيخ يعيش على حفلات الأذكار، وأكل المناسبات..!

شعرت مع الاستعداد للسفر لـ"مصر" بسرعة إجراء زواج أختي الريفية فاطمة، من رجل كبير في السن عنها، وأنه كان من أقرباء أبي بل ويعاونه أحيانًا، لكننا كنا لا نحبه لجشعه وطمعه وهو يقول لأبي "خالي الحاج". لكن العائلة كانت تعاني اشتداد الأزمة الاقتصادية في القرية (واتضح أنها في مصر كلها) وأن المغامرات الزراعية لوالدي "الشيخ، الحاج" لاتجلب له إلا الكلام عن أنه فلاح غير محترف، طيب القلب لا يعجبه الصراع مع العاملين من الفلاحين، لكنه غامر مع الرائج عند زراعة الكتان مرتين متتاليتين، لم يشتر السماسرة التجار المحصول لعدم طلب مصانع المدينة له، فانهارت العائلة اقتصاديًّا. ذلك رغم أن الوالد كان محسوبًا على الميسورين نسبيًّا، يملك أكثر من ثلاثة أفدنة في قريةٍ سقف الملكية فيها بين 8 – 10 أفدنة ونصف منزل في المدينة. ولكن هذا "اليسر" لم يولد خبرة وتراكمًا للثروة قدر الاقتصار على "المكانة" التي أصبحت هي "الستر" و"الساتر". وهي مثل المكانة الدينية التي احتلها الوالد بعد رحلة شاقة للحج أواسط الثلاثينيات، ليصبح "الحاج" الوحيد لعشرات السنين في القرية، بل ولغاية مركز "الشهداء" أي لعدة قرى. وأصبح من يدلج للقرية من أولاده لسنوات أيضًا، لايُعرفون إلا "بأولاد الحاج" دون مسماهم. وكان لدى "الحاج" نسخة من "البخاري" يحتفظ بها منذ جاء من الحجاز في صندوق الملابس الخاصة، ومعها مايشبه "الترموس" بطول حوالي المتر تقريبًا مملوءًا من مياه

زمـزم! وفي حالة وقوع جريمة كـبرى في القرية يؤتى بالمتهم ليحلف على البخـاري عند "الحاج" مهددًا بالداء العضـال إذا كذب: بينما يحلف أبناء القرية على "الختمة" (المصحف) كل ساعة من أوقات النهار دون وجل! وقد حملني ذلك الكثير من مظاهر الأدب والتأدب، لصحبتي والدي "الحاج" وجلوسي مع الكبار معظم الوقت، وأنا لم أتجاوز سن العاشرة. لكنهم كانوا جميعًا مُصرِّين، وهم يقرءون جريدة المصري ويمرون على جميع العائلات للمعايـدة صباح كل عيد، مما فـرض عليَّ حياء لم أكـن أتمناه هكذا، لأني حرمت من متعة التهريج الصبياني. وبلغت جديتي وتديني الظاهر أني في سن الصبا طلعت المئذنة لأول مرة لأؤذن للصلاة وسط دهشة الكثيرين، بـل وتخويفهم لي من عفاريت داخل المئذنة. لكني كنت أعرف أني حافظ ومحصن بالقرآن ولا أهاب شيئًا مثل ذلك (كانت النساء الراغبات في الحمل تصعدن المئذنة عند الغروب، لتتسبب الخضة في حملهن!).

كنت ألبس جلبابًا ذا ياقة، فيسخر الصبية في القرية من ذلك "البندري" (يعنـي ابن المدينة)، الذي لا يلبسـها بطوق فلاحي. والطريف أنها كانت نفس أزمتي بعد وصولنا حي السيدة زينب، حيث سخر مني الصبية ثانية بسـبب أني ألبس جلابية فلاحي وليس بيجامة! وأظن أن ذلك قد فرض عليَّ دائمًا متابعة سلوك الصبية والمقارنة بين الحضر والريف... وكان الشوق للحضر أو الدهشة من أجوائه يصل إلى تمني الوصول لزيارة مدينة الشهداء (المركز)، حيث فيها سـيدي شـبل ومولده الجاذب لمعظم شـباب القرى المجاورة، للاستمتاع يومًا في السنة بحرية مخالطة البنات، وشراء الرغيف

القمـح والفلافل. ولا يبدو أني قمت بأية عملية تكيف في الحالتين، لكن مع الإقامة الدائمة في المدينة بعد ذلك بقيت محاصرًا في البيت للقراءة بدءًا من روايات أرسين لوبين التي يراكمها أخي الأكبر، وانتهاء ببعض الكتب الدينية التي تركها أبي عند وفاته عقب حضورنا للمدينة بعامين تقريبًا. كان المسكين يعاني من مرض "الربو" القاسي، ومنعه الأطباء سابقًا من الإقامة بالمدينة، ولذا ذهب بعد مولدي بالجيزة (1935) إلى القرية لبضعة سنوات من الأربعينيات، واشترى الأرض وبنى منزلًا بأمل الاستمرار في القرية، التي لم تساعده الحياة فيها، وهو غير المحترف ريفيًّا..!

اكتشـفنا أن والدتي كانت هي الميسورة، وأنها عاونت والدي في شراء الأرض بالقرية، وهي التي اشترت الجزء الأكبر من منزلنا رقم 35 بحارة الشـيخ سليم بالسـيدة زينب قبل رحيلنا من القرية للمدينة، والعيش في طابق واحد مع أخي وأختي...

لكن يظل شـاغلي إلى الآن ذلك الظرف الاقتصادي الصعب لعائلتي رغم هذه التيسـيرات، ورغم ما يقال عن تحسـن الظروف الاقتصادية في المسـتعمرات أثناء الحرب العالمية. كانت بريطانيا تتحكم في مسألة ديون مصر بعد الحرب لتصبح مصر مدينة بينما هي في الحساب العادل دائنة. وقد يكـون ذلك قد فاض على تجار القطـن بالثروة، نتيجة احتكاره وتصديره لإنجلترا بينما متوسـطو الحال يعانون من الأوضاع الجائرة. وهو ما يبدو أنـه لم ينطبق على مصر، أو أن الأمر كان طبقيًّا تمامًا في وضعنا الذي أجاد

الإنجليز رسمه لاستمرار السيطرة على مصر عبر الإقطاعيين والحضريين، وإبقاء الطبقات الشعبية، وكانت قاعدة الوفد رغم عدم تحرره من تكوينه الطبقي، فجاء به صوته الوطني قويًّا في انتخابات 1950 بنجاح كبير.

كنت أرى ما يشبه الأفراح في القرية، مرة مع نجاح الوفد في ناحيتنا من القرية، ومرة في الناحية الأخرى مع نجاح العمدة حليف "الدستوريين" (حزب القصر المنافس للوفد). وكان يرتبط بهذه الأفراح تحرك جمهرة كبيرة من أهل ناحيتنا، الأكثر عددًا وقوة وحماسًا مع الوفد، مصفقين مهللين، ووراءهم مجموعة بنات ونساء من المسموح لهن بالسير في الشوارع مكشوفات الرأس أحيانًا، مرددات الهتاف للنحاس باشا زعيم حزب الوفد، مهددات الدستوريين بالويل والثبور إذا عارضوا انتقال "التليفون" و"السلحدار" حالًا إلى دار "عمدة ناحيتنا" الشيخ عبد الجليل الخولي. كانت "عدة التليفون" وآلة التلغراف، ومجموعة من بنادق الغفر، هي الرمزية التي تعبر بها الناحية عن الانتصار المنتظر الذي كثيرًا ما حرمتهم منه السراي الملكية بإقصاء حزب الوفد وأهله. وكان الأفندية على قلتهم منقسمين، لكن عائلة "شعير" الإقطاعية الفلاحية من قلب دنشواي كانت هي رمز الغلبة الوفدية، ويفوز منها دائمًا عضو البرلمان الوفدي إذا قدر له النجاح، أما عائلة "علوي بك" الدستوري فتعيش منعزلة نسبيًّا على أطراف القرية. ومع ذلك ينجح عمدتها بالتزوير في أخذ العمودية بفضل حكومة الدستوريين... وكان هذا النزاع "التاريخي" ينتقل إلى أبناء المدرسة الأولية" الوحيدة بالقرية، وفق نظام التعليم الإلزامي (الأولي) لنظل في عراك دائم كلما اقتربت الانتخابات،

أو زارت إحدى الشخصيات العامة الناحية من أيٍّ من الحزبين. وبالطبع كنت "أبدو" وفديًّا، كما كان أبي بدون أي حماس حقيقي، رغم ترديده أن الوفد "هو الممثل الحقيقي لثورة 1919"، لا أعرف لهذا الفتور سببًا إلا ذكره كثرة الباشوات في الوفد مثل غيره، كما كان يتردد أمامي... دون شرح لذلك.

إلى القاهرة

كانت مغادرتنا للقرية أواخر 1947 مقترنة بالأسى والأحلام. بدا ذلك على الأهل والأخوات، خاصة في ظروف الحرب مع "اليهود" في فلسطين، فالغارات تقترب من القاهرة، بينما كنت أبدو فرحًا بأنني سأكون ذلك "البندري" بحق وسط أبناء البندر، بل "ومصر" نفسها. كان بيتنا في السيدة زينب، وهو حي شعبي أصيل، تسكنه الطبقة الوسطى الصغيرة، ومحاط بأحياء أكثر شعبية وفقرًا كمناطق في إطاره مثل "زين العابدين"، و"القلعة"، و"الكبش" و"المدبح". ويكاد كل حي من هؤلاء أن يحمل سماته الخاصة وسمات لأبنائه، مثل المدبح وفتواته الرجال، والكبش وفتواته النساء... إلخ. تصورت أن أصبح تلميذًا بالمدرسة "الأميرية"، حيث كانت مدرسة "محمد علي" بميدان السيدة زينب رمز استقرار أبناء الحي وأهليهم، وإذ بي أواجه صعوبة السن مع صعوبة الانتقال من التعليم "الأولي" أو الإلزامي

في القريــة إلى "الابتدائي" في المدينة. وكانا نظامين مختلفين، لنرضى بمضي عــام أو أكثــر بوضعي في مدرســة "أهلية" هي مدرســة "المعهد العلمي" التي أسسها أحد رجال الأعمال، وكان ذلك أول تقليل من قدري في هذه الحــارة. لكن سرعان ما شرفت بالشــهادة الابتدائيــة بعد عامين لألتحق بالتعليم الثانوي بادئًا بمدرسة صغيرة ثانوية ثم "الخديوية الثانوية" ذات الصيت عــام 1950. كان نظام المرحلة الابتدائية أربع ســنوات والثانوي خمسًا، ولكني كنت قد اقتصرت عامين في المرحلة الأولية بالقرية، عشت فترة انتقال مرهقة في بداية وجودي بالقاهرة بين كوني "فلاحًا" أو قاهريًّا، وعلاقتنا بالقرية لم تتوقف.

أذكر أنه كان بالمنزل شــقة خالية، صممــت والدتي على عدم تأجيرها لأحد لتبقى خالية لأقارب "الحاج" من الريفيين، فقراء أو قادرين والذين يســتفزونها بالمجيء تباعًا والإقامة عندنا ليوصلهم "الحاج" إلى مستشفى القــصر العينــي، أو يلف معهم لزيــارة أهل البيت الســبعة الذين يحمون "المحروسة"..! وبالتالي تم ضغطنا في الطابق الرابع الذي أتاح لي الابتعاد عن أولاد الحارة لفترة لعدم قدرتي بملابسي الفلاحي أن أشاركهم "لعب الكورة" أو الصعلكة بأشكالها...

لا أذكر في أواخر الأربعينيات إلا حديث عن حرب فلسطين، أو أعمال الفدائيــين في القنــال، أو تزوير الانتخابات ضد الوفد، أو شــعارات على الحائط من حركة "حدتو" عن الاستعمار الإنجليزي، وأخرى عن بطولة

"الفدائيين" من الإخوان ووطنيين آخرين، بما اشتهر بين الصبية والشباب بشعار: "الفدائيون مروا من هنا".

مع استقراري في المدرسة الخديوية عقب عامين في تلك المدرسة الصغيرة، شعرت أني أصبحت في عالم "التمرد" الحقيقي، ليس بسبب سن البقاء في المنزل فقط، ولكن بسبب أن المدرسة الخديوية تجمع تلاميذ كبارًا، وهي أحد مراكز نفوذ "الوفديين"، ممن يقودون المدارس المحيطة (المبتديان بالحلمية، والخديوي إسماعيل والإبراهيمية ليستا ببعيد)، في مظاهرات داعمة للنحاس باشا وحزب الوفد، حتى تصل إلى جامعة القاهرة وتردد الهتافات التي تعبئ أبناء الكليات القريبة.

كان وجودي في "الخديوية" مرحلة حياة جديدة بحق، لأنه طوَّر بدوره، وجودي في الحارة، بحيث بدت الحياة بين الحارة والمدرسة عالمًا متكاملًا، وأشعر عندما أسترجع تلك الفترة، أن مصر كانت في حالة غليان ذي طبيعة خاصة قبل حركة "الضباط الأحرار" عام 1952، وبعد وقوعها بعدة سنوات، إشارة إلى تطور منتظر لمصر بين الأمم الناهضة كما كنا نسمع من بعض مدرسينا، ومنهم القيادي الماركسي أديب ديمتري. وكنا نخرج من المدرسة لنمشي في مواكب المرشح النيابي الذي نؤيده، ونذهب في مظاهرات طلابية إلى الجامعة تنديدًا بالملك فاروق في ذلك الوقت.

كان بين مدرسينا في الثانوية شباب طامحون بحق؛ أصبح بعضهم رؤساء جامعات، أو في مناصب كبرى في الوزارة أو من قيادات اليسار المصري...

"السعدي فرهود" و"محمد الغنام" و"أديب ديمتري"، ومعهم أنشأتْ مجموعة منّا وخاصة مع "هاشم النحاس" (المخرج السينمائي لاحقًا) جمعية الصحافة، والخطابـة، والتاريخ. ومن الخديوية خرجنا في مظاهرات 1954 من أجل أن يرجـع الجيش إلى ثكناته، والاعتراف بالأحزاب السياسـية. ونظمت مع الصديق هاشـم النحاس -المخرج المعروف الآن- مجلة الحائط لتعبر عن اتجاه طلابي وطني في الخديوية. وكان ذلك امتدادًا عاديًّا لما مارسناه في الحارة مبكرًا عن ذلك بقليل، بمشاركة سيد سالم، (أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس وصنعاء بعد ذلك) والمعايرجي وآخرين...

كنا في الحارة منذ 1950/ 1951 نقوم بأنشطة متنوعة أيضًا، ونتخذ مواقف مثيرة لا يسـعني إلا ذكر بعضها. كنا حوالي سبعة أو ثمانية من الصبية بين 12 – 15 سنة، ارتبطنا تحت مسمى "الاتحاد". وكنت أرأس تحرير مجلة ورقية باسم "الشعلة" التي كانت تصدر نسخة واحدة بخط اليد – ولدي نسخة لأحد أعدادها حتـى الآن – وأذكر أني وضعت على أحد أغلفتها صورة "محمد صلاح الدين" وزير خارجية الوفد 1951، الذي أعلن رفض البيان الثلاثي (الأمريكي البريطاني الفرنسي) حول الشرق الأوسط، وقابل السفير السوفيتي، بل وفي أحد أعدادها مقال لي عن رفض معاهدة 1936.

وإلى القارئ نصًّا من "الشـعلة"، لنقـترب من تفكير هؤلاء الصبية في ذلك الوقت، وهو من العدد الثالث من مجلة "الشـعلة" نصف الشـهرية، وبخـط يدي، صدر في 13 يوليو 1952 وعلى الغلاف صورة للزعيم محمد

فريد، وتحتها أنه "غريب الدار والقبر" إشارة إلى وفاته المبكرة خارج مصر (في برلين نوفمبر 1919)، بعد أن ضحى بالكثير متقدمًا في العمل الوطني عن زعيمه مصطفى كامل.

وفي مقال عنه سردت الشعر الذي قيل بمناسبة وفاته، وهو يطالب بالحرية لبلاده، ومات كما يموت الأبطال. وفي نص كلمة التحرير الأولى بالمجلة كتبت: "لم يؤخر مصر غير هذه العقول القديمة التي يفكر بها أولو الأمر فينا، ولكن نحن الشباب الناهض المكافح، هل سنسلك هذا الطريق.. إلخ". وفي العدد حوالي خمس مقالات أحدها لصديق عمري هو اليوم الدكتور "سيد سالم" عن السياسة الفاسدة والآراء المتضاربة...

بدايات العمل السياسي

كانت "الحركة المباركة" في 23 يوليو 1952 بقيادة مجموعة الضباط الأحرار – محمد نجيب و جمال عبد الناصر وزملائهم – فانحزنا "للثورة" ووضعنا صورة محمد نجيب على غلاف مجلتنا "الشعلة"، ورحبنا بخلع الملك فاروق وخرجنا في المظاهرات تأييدًا للثورة ولبيانات بعض الأحزاب على السواء، لأن ضباط يوليو بدءوا الحملة على الأحزاب مباشرة عقب "الانقلاب".

كان طرف من مجموعتنا منتظمًا في صلواته وتلاوة القرآن، وكنت معهم نذهب لزاوية "الجمعية الشرعية" بالحي، لكنا كنا نشطاء أيضًا مع حزب "مصر الفتاة" (الذي حمل اسم الحزب الاشتراكي وقتها) بزعامة

أحمد حسين، نذهب كل خميس لسماع خطابه في البيت الأخضر، ونشتري صحيفته "الاشـتراكي" التي يصدرها، ويبقى من ذكراها ذلك المانشيت الشهير الذي حمل تحته صور فقراء مصر مكتوبًا عليه: "رعاياك يا مولاي" الذي أدى به إلى السجن. وفهمنا وقتها أن ثمة تقاربًا بين الحزب الاشتراكي "مصر الفتاة" وبين الإخوان المسلمين، فجذبنا ذلك إلى زيارات لـ"شعبة" الإخوان بالحي، لنصبح بعد شـهور أعضاء نشـطاء في "الشعبة"، الاسم التنظيمي لوحدة الحي، لأن الاستمرار في مصر الفتاة أصبح صعبًا وهو المتهم بحريق القاهرة في يناير 1952 أيضًا ولكثرة مناورات الزعيم أحمد حسين.

كانـت الفترة مـن 1952 إلى 1955 فترة غنية في حياتنـا نحن مجموعة "الاتحاد" بالحارة، وامتدادها في "الخديوية الثانوية"، وذلك إزاء مناورات مستمرة بين أحزاب تحاول الاستمرار بل واسترجاع السلطة، وبين ضباط شبان أتيح لهم الاستقرار في السلطة وسارعوا بإجراءات اجتماعية واقتصادية لافتة وقريبة من الناس. وما إن دخلت مع آخرين، وليس كل المجموعة، تحـت مظلة "الإخوان" حتى انتظمت الحيـاة بطريقة أخرى غير ما كانت مجرد "شـلة الحارة". هنا توفرت على كتب "الإمام" حسن البنا ورسائله، وكتب الشـيخ سـيد سـابق، ومحمد الغزالي، ومحمد قطب، وسيد قطب، وقرأتُ معهم في سيرة ابن هشام، وتفسير ابن كثير..! قد لا يصدق كثيرون كيف أن صبيًّا بين 15 و18 سنة يقرأ كل ذلك فيما أسميته في بعض كتاباتي الأخرى "تأسـيس الراديكالية" في فكر الكادر الإسـلامي، لأنها في سـن التأسـيس على هذا النحـو، ومنها ينتقل إلى الجناح العسـكري أو الثقافي

والسياسي. كنت أميل لجناح إخواني آخر - يعرف بتمثيل الاتجاه الثقافي بقيادة البهي الخولي والشيخ سيد سابق وعبد العزيز كامل... ولم يكن ذلك مرضيًا للجناح العسكري. وفي هذا السن الباكر كان أكبر قياداتنا أيضًا شبابًا في الجامعة، حيث كان ملحوظًا تخلي كثير من الإخوان عن التنظيم فور اندماجهم في الوظائف الحكومية بعد التخرج. ولا بد أن يكون في الذهن ضآلة الوظائف المتاحة حتى لخريجي الكليات العلمية. وكانت هذه الكليات يسيطر عليها منظمات شيوعية معروفة، بينما الإخوان في كليات نظرية أو التجارة، حيث الوظائف أصعب لخريجيها. وهذا معكوس ما شاهدناه في السبعينيات والثمانينيات بعد ذلك. وإزاء العنف المتبادل حول السلطة في التنظيم وفكره فلا بد أنني قدرت أن دماءً من بيننا ستسيل، كما أن الفرصة ستكون سانحة للحكومة للهجوم سافكةً دماء جديدة. ولذا لم أرتح قبل اتخاذ قرار، على ما يبدو لي الآن أنه قرار بالانسحاب من الشأن الديني كله. ولم يكن ذلك مجرد مفاجأة...

كنت ألتقي في تلك الفترة مع أصدقاء من الحي صباح كل جمعة غالبًا، عند "الأخ" سمير فياض (د. فياض طبيب العظام بعد ذلك) وكنا نجالس أخاه الأكبر قليلًا سليمان فياض الذي صار قصاصًا وأديبًا لامعًا، وكان أزهريًّا مثقفًا يجيد الهجوم على منافذ المتدينين إلى الفساد والضلال، ويتحدث عن التاريخ الإسلامي كاشفًا خفايا كثيرة يؤكدها لنا من سيرة ابن هشام، والمسعودي، إلخ، بل كنا قرأنا أيضًا كتاب "لماذا تأخر المسلمون وتقدم

غيرهم" لشكيب أرسلان. وفي مناقشات أهدأ مع زملاء آخرين، اكتشفتُ ألا عودة... ورحت أكتب عن كل ذلك الصفحات الطوال، لكني كتبت يومًا ما يشبه المقال في حوالي 20 صفحة عن تاريخ الصراعات الدموية في الإسلام بما لا يمكن أن يجعل من هذا التاريخ، تاريخًا مشرفًا لأمة مسلمة، ولا بد أن تكون النهضة على أساس آخر.

كنت أدهش أحيانًا لاستبعادي الإخوان من عالمي بهذا الشكل، خاصة وأن الموقف من "حُكم الثورة" لم يكن متبلورًا تمامًا، وكانت سمعة "الثورة" بعد إقصاء الأحزاب، أنها تقترب بل وكانت على علاقة بالإخوان. وجاء تعيين الشيخ الباقوري (أحد قادتهم) وزيرًا للأوقاف دون شروح كثيرة لنا، مؤكدًا معنى هذا التقارب. ولذا فقد أرجعت ذلك عند تجميد علاقتي بهم، إلى منهجهم الانتهازي أو طابع التصارع الذي أتحدث عنه، كما جاء تأكيد توقعي للصراع الدموي عقب محاولة اغتيال جمال عبد الناصر، فيما عرف بحادثة المنشية بالإسكندرية في 26 أكتوبر 1954!

كانت فكرة ارتباط عبد الناصر ورفاقه بالإخوان راسخة في أذهان كثيرين مثلي، منذ عملوا هم على تصويرها قوية عقب الانقلاب مباشرة على أساس أنهم كانوا معًا في فلسطين، وأنهم – معًا – تحملوا وقائع الحرب وهزيمة العرب على السواء. بل وكانوا أكثر دعائية عن حرب التحرير ضد الإنجليز في قناة السويس بشعارهم: "الفدائيون مروا من هنا" على الجدران في أنحاء الحي. وكان ذلك يؤكد لنا أحيانًا النمط التديني الذي يبدو فيه

معظم زعماء الضباط الأحرار مثل حسين الشافعي وكمال الدين حسين، بل والفوضى العقلية عند صلاح وجمال سالم. نجحت "حكومة الثورة" في تصفية كل شيء قديم في أذهان أمثالي، فزعيم مصر الفتاة فقد قيمته قبل الثورة ولم يبرئه إلا إخراجه من السجن في صمت، والأحزاب هم من الباشوات الذين نهبوا مصر، وجرى تأميم أراضيهم في قانون الإصلاح الزراعي، ودخل الشيوعيون في قضية جديدة (1954) بعد أن أساء النظام الملكي سابقًا إلى سمعتهم بشكل غير أخلاقي، ناهيك عن السياسي، في قضايا 1947 التي سمعت بها من القرية، تتهم "أشخاصًا غرباء يتزوجون أخواتهم، ويكفرون بالله.."!

كنت أنشد منافذ التفكير السياسي واسع الأفق، ولم ينفع معي إلا أنني جمدت عضويتي في الإخوان حتى الانعزال التام. لم يكن في ذهني نشاط آخر، ولم أعتزل أصدقائي الإخوان في الحارة، بل ظلت العلاقة الفردية قائمة مع البعض حتى الآن! وقد كادت هذه العلاقة بهذه الأريحية أن تودي بي بعيدًا في عذابات من تعرضوا للاعتقال منهم، حيث كان البحث الأمني يجري عن القيادات الشابة بشراسة. في مرة تتبع الأمن أثر أحدهم حتى قيل لهم إنه صديقي ويختبئ عندي أحيانًا. وقد حدث هذا بالفعل في لحظات اضطرار صاحبنا إلى التزويغ منهم بأي ثمن. وفوجئت ذات مساء من شتاء 1954 بأحد الضباط ومساعديه يطرقون باب شقتنا بعنف ويدخلون الحجرات بنفس العنف. ورغم أني فهمت معنى هذا الهجوم، لكن رعب الأسرة أقلقني جدًّا. راح الضابط المسئول يعبث بأوراق مكتبي

الصغير، بينما العسكر يقلبون البيت رأسًا على عقب. وإذ بالسيد الضابط بعد سؤالي عن الشخص المطلوب وإجابتي السلبية يتوقف عند ورقة من بضع صفحات، ويجلس على المقعد ليقرأ... وبعد كل عدة صفحات يسألني: "هذا خطك؟" ويقارنه بكراساتي! "أنت كتبت هذا؟" نظرت للورقة وعرفت أنها مقالتي إياها عن حالة الإسلام والمسلمين وموقفي..! انتهى من الورقة وأخذها، ولكن بصحبتي، إلى "السجن الحربي" أشهر مرافق التعذيب ساعتها!

واكتشفت أنه هاجم شقة الصديق الساكن في منزلنا أيضًا – سيد سالم (أستاذ التاريخ اليمني حاليًا)، وأخذوه بدوره، ولكن في عربة "الترحيل" بينما كنت في عربة السيد الضابط يستجوبني لاستكمال معلوماته عن التنظيم، وأعترف أني لم أكن مفيدًا له بقدر ما عانيت من ضغوط معنوية! بقيت في مركز الشرطة لليلتين أو أكثر قليلًا، ثم أطلقوا سراحي... ثم سراح زميلي، بعد تجربة مريرة من سماع صراخ المسجونين والكلاب البوليسية معًا!

استمرت لقاءاتي مع سمير وسليمان فياض، كما تعرفت أيضًا على الكاتب النابه الراحل عبد الجليل حسن في تلك الفترة، وهو من أفضل مثقفينا الذين رحلوا شبابًا. كنت في آخر أعوام الثانوية العامة قسم فلسفة، وحين انتهيتُ من الإخوان في تلك الفترة، غرقت في قراءات متنوعة، من مكتبة "سي زكي" زوج أختي (وكنا ننادي الأفندية المحترمين عادة "سي فلان"). وكان قريبًا من محمود تيمور ويقرأ معه، وإذ به يهديني – باعتبار حبي للفلسفة

في تقديره – كتابًا عن "سـارتر والوجوديـة" لا أذكر مؤلفه لكنه كان من ترجمة الدكتور سـهيل إدريس في بـيروت. وأذكر أن هذا الكتاب قد فتح لي بابًا من القراءة عن الحرية والالتزام سـواء في الفلسفة الحديثة بل وعند المعتزلة، إلى كتب الزندقة وتاريخ الإلحاد في الإسلام (تأليف عبد الرحمن بدوي) إلى برتراند رسل عن "النظرة العلمية"، وكل ذلك وأنا أجهز نفسي لدخـول الجامعة عام 54/ 1955 خوفًا من أن أبـدو جاهلًا أمام زملائي. وكان وجود مكتبة دار الكتب الفرعية في المنيرة قرب منزل أختي يتيح لي اسـتعارة الكتب وفرز العناوين، مما جعلني مصدر حكي وتعليق، بدا لي مفيدًا للزملاء الآخرين داعمًا لمكانتي بينهم.

بدأ ينتابني شعور أنه بانتهاء مرحلة الدراسة الثانوية فإني أنتقل لمرحلة أخرى، من أول مظهري إلى تفكيري وممارساتي مع الآخرين، وموقفي من موضوعات كثيرة بعضها ما زال مطروحًا، بحكم مروري عليها في السنوات الأخيرة. ومن هنا كان شـعوري بالقلق المبكر من ضعف فهمي لأحوال مصر، إزاء ما يردده السياسيون الآخرون من جهة، وما تنفرد به الحكومة بمهارة مبكرة أيضًا في السـيطرة الإعلامية من جهة أخرى، عبر صحف "الشعب" و "الجمهورية"، إلى إذاعة "صوت العرب" على طول اليوم، بما يمكن أن يحتوي أي مواطن، بما يتردد فيها من تصريحات رنانة عن رفضنا للاحتلال الإنجليـزي في القنال، وانفراد أبناء الجيش بالمقاومة، وصلابة المفـاوض المصري من أجل وحدة مصر والسـودان، والجلاء العاجل... كما بدأنا نسمع عن عودة طرح "البيان الرباعي" لإنجلترا وفرنسا وأمريكا

وتركيـا، وانضمام العراق لهم في حلف بغـداد، الذي ترفضه مصر كأحد مواقف ضباط ثورة يوليو الصلبة من الاستعمار.

ويبدو أني انتقلت من حالة التنظيم وتلقي التحليلات الجاهزة، إلى حالة من الاضطراب الفكري تظهر فيه استعادة قراءاتي عن مصطفى كامل، أو تصريحات وتسريبات وطنية عن محمد صلاح الدين وعبد الفتاح حسـن الوزيرين الشابين السابقين في الوفد، وإذ بالأنباء تأتي عن توقيع الاتفاقية حول السـودان وبدء التفاوض حول القوات البريطانية في مصر، ثم تمت اتفاقية الجلاء، وفي جزء منها إمكان عودة الجيوش الأوروبية إلى قناة السويس في حالة عدوان الاتحاد السوفيتي على تركيا! وكنا أصلًا قلقين من التفاوض "حول وضع السودان" بإشارات لإمكان انفصاله بعد الاستفتاء. وفي أجواء يتهم فيها الوفديون والإخوان جمال عبد الناصر ببيع السودان، أو التنازل عنه ليحكم هو مصر منفردًا، لم يمنعني التردد حول تأكيد وطنية الضباط مـن الخروج في مظاهرات ضد اتفاقية الجـلاء التي نظمتها "قوى وطنية" عديدة حسب ما شاع في ذلك الوقت. وكان التنازع بين عبد الناصر ومحمد نجيب على السلطة يغطي على الجدل حول الاتفاقيات مع الإنجليز، إلا أن الجهاز الدعائي الكاسح للحكومة استطاع أن يقفز بنا إلى المسألة الوطنية، عبر التصريحات النارية للقادة ضد الإنجليز، بل سافر عبد الناصر إلى آخر الدنيا في إبريل 1955 ليحضر مؤتمر باندونج في إندونيسيا، حيث لاقى قبولًا دوليًّا هائلًا أثَّرَ في أوسع دائرة في مصر خاصة من اليسار. فبدأت أتراجع أيضًا عن تحليل الموقف السـياسي الإخواني الداخـلي إلى القضية الوطنية

إلى صياغة الحكم الناصري. تمامًا كما استقطب عبد الناصر، ليس شباب المصريين وحدهم، بل وجماهير الشعوب المحيطة.

في جامعة القاهرة

بدأت مرحلة جديدة إذن وأنا في طريقي إلى جامعة القاهرة في أكتوبر 1954 بصحبة بعض زملاء الحارة الذين سبقوني بعام أو أكثر إلى تلك الجامعة العتيدة، تصورت حجم التوقعات باندماجي فيها. خاصة وأن كلية الآداب التي قبلتني دون منافسة لتقديراتي العالية في الثانوية أدبي (65 %)، تقوم بتدريس المواد التي تعرفت على بعضها مثل الفلسفة والتاريخ.. إلخ، وبعضها الآخر سأتعرف عليها، وعليَّ أن أتخصص في بعضها مثل علم الاجتماع وعلم النفس. وجاءت أول صدمة لي بما رأيت من حواجز أمنية حول الجامعة من كل ناحية وحرس الحواجز الذين يطلبون أوراق القبول. كان التعليم الجامعي بالمصاريف وإن كانت محدودة لمن حصلوا على أقل من 60 % من الدرجات، فلم تعلن مجانية التعليم الجامعي المطلقة إلا بعد عام 1962. فسر لي الأصدقاء سرعة وضع هذه الحواجز بأنها من لوازم السيطرة على البلاد بعد أحداث المنشية وتحفز الإخوان المسلمين للعداء. وضمن النقاش أن هذه من شواهد الحكم العسكري، لأن الجامعة ذات الخمسين عامًا لم تشهد ذلك من قبل. ودخلنا إلى المدرجات، وإذ بالمدرج الشهير 78 بكل سعته مزدحمًا بالطلاب والطالبات الجدد مما بدا لي آلاف

الطلاب، وهو ما لم أره في المدرسة الثانوية نفسها، ثم علمت أنهم حوالي الألف طالب فعلًا، وأنهم هنا في المواد العامة المشتركة مثل اللغة العربية وآدابها. وفي معلوماتي السابقة أن كلية الآداب يدخلها بضع مئات فقط، وإذ بتفسير الموقف، أن الحكومة في عملية ترضية للرأي العام، أتاحت كليات الآداب والحقوق للقادمين من الثانويات العلمي والرياضة، لأن الكليات المناسبة لا تتسع لكل خريجي الثانوية المتوفرين بسبب مجانية التعليم العام!

أذكر ذلك وأنا أتصور أن سياسة "مجاملة الرأي العام" أو قل كسبه في مجال خطير كالتعليم، هي التي سادت إزاء عدم توفير ميزانيات كافية وانضباط العملية التعليمية بحجة مجانية التعليم دائمًا. وكان لكل ذلك أثره المبكر على عملية التعليم كلها رغم أهميتها الاجتماعية.

رغم ارتباطي بقراءة الفلسفة لكني سجلت نفسي في قسم الاجتماع... ربما لاعتقاد سائد أن الفلسفة في الكتب وليست في الفصول الدراسية، أو لأن معرفة المجتمع مثل معرفة النفوس تجلب بعض الشباب أكثر إلى الاجتماع وعلم النفس، وربما لتصوري أنه يمكن العمل بليسانس اجتماع في فرص أوسع من عالم الفلسفة، مع أسرة تحتاج لتخرجي في أسرع وقت كما ألحت والدتي...

كان أول عامين في حياتي الجامعية مصدر تكوين أعتز به رغم زحمة المجانية..!

كما بدا العامان التاليان مصدر انطلاق أعتز به أيضًا...

كان للجامعة روحية كبيرة عند جيلنا، ورثناها من القراءة عن الجامعة كمشروع أهلي وطني في مطلع القرن، وعن سيرة العظماء الذين مروا بها، رؤساء وأساتذة مثل لطفي السيد وطه حسين، بل وأعتقد أن ثمة عاملًا آخر محسوسًا هو تدهور سمعة الأزهر وشيوخه... كان الذهاب إلى الجامعة رحلة عمر الاشتياق إلى التحقق، وإلى عوالم أوسع من الحارة ومن ميدان السيدة زينب بالتأكيد.

جذبتني محاضرات الدكتور إبراهيم سلامة في الأدب العربي، كمحاضرات تقديم عامة للسنة الأولى لطلبة الكلية مجتمعين. قضى الأستاذ عامه في تحليل "حي بن يقظان" لابن طفيل، لأفهم بعد أن أشار لابن رشد أيضًا طبيعة المدرسة العقلانية التي ظهرت في رحلة حي بن يقظان، على لسان إبراهيم سلامة، ولا يزال عمقها في ذاكرتي. وحين أربط ذلك بشروح أستاذ علم النفس البارز "يوسف مراد" لتطور الجهاز العصبي منذ الخلية الأولى للأحياء حتى الإنسان، ومن بعده دروس مصطفى سويف في علم النفس التكاملي. أدرك أنني تعلمت في مدرسة "ديالكتيك" أو جدلية حقيقية، تنزل بالمعرفة من السماء إلى الأرض خاصة وتقدم مناهج التحليل العميق، بينما هذه الكلية لم تشأ أن تسمع عن مذاهب المعرفة الوجودية أو الماركسية في أي وقت من تاريخها (إلا إذا جاء ذلك في وقت متأخر...) ورغم مكانة الجامعة التي تحدثت عنها، وما يحيط بها من فلسفات سلامة موسى ومحمد

مظهر والشيخ علي عبد الرازق، فإن الرجعية المصرية سجلت دائمًا آثارها على برامج الجامعة. وقد دفعني ذلك للاستماع بجدية أكبر لبعض الزملاء الذين كان يتبين لي أنهم من شباب الحزب الشيوعي، وخاصة الصديقة "آمال" التي قدمتني للزميل "إيمان" بعد ذلك، في محاولة مبكرة للتعرف على الحركة، وكان أملي أن يتوفر لي من المعرفة في الكلية بهذه المذاهب الكبرى قبل الاندماج في حركتها. كان "درسي" مع الإخوان المسلمين لم يتبخر بعد! وكان أن اخترت قسم الاجتماع متصورًا أنه أحد مصادر العلم الحديث، وإذ بي أقع في "شر أعمالي" بسبب هيئة التدريس في هذا القسم في ذاك الوقت. وقد كان على رأسه أستاذ بدا أنه لم يدرس إلا على يد أستاذ فرنسي واحد هو "إميل دوركايم" خلال بعثته في فرنسا لبضع سنوات، وبرز الآخرون في تاريخ العلم أو الأنثروبولوجيا أو غيرها، وقد اتخذوا قرارهم بأن يستجيبوا "لطلب النظام" بعد انتصاره على قوى الأحزاب جميعًا – فيما سُمي "بربط العلم بالمجتمع" – مستسلمين لسخرية "حضرة الصاغ" وزير التعليم وقتها، من اهتمام أساتذة محترمين بجناح الصرصار! فقرر أساتذتنا أن الخدمة الاجتماعية هي التوجه الأساسي، وأن شعار "الاتحاد والنظام والعمل" شعار الزعيم هو عنوان كتاب البروفيسور رئيس القسم المقرر علينا. ومن هذا القبيل الكثير...

كنت أعزي نفسي بقراري حضور مواد قسم الفلسفة، مع الإطلال على قسم الاجتماع. ولم أظن أن لي فيه فرصة تقدم باهر مع هؤلاء. وعوضت نفسي أيضًا بحضور بعض محاضرات يلقيها أساتذة كبار في تاريخ الثقافة

العربية مثل طه حسين ومحمد مندور ومصطفى سويف...إلخ. كما لازمتُ في الفلسفة زكي نجيب محمود، وعثمان أمين، اللذين كانا يجادلان عن الفلسفة اليونانية أمام فلسفة مصر الفرعونية، أو الوضعية المنطقية أمام المنطق الأرسطي، أو "الجوانية والبرانية" في المدرك الفعلي، فضلًا عن عمق مدارس الفلسفة الإسلامية عند مصطفى حلمي أو أبو ريدة... وبينما كان قسم الاجتماع في جامعة عين شمس يعبر الخدمة الاجتماعية إلى مدرسة فرنكفورت أو مدرسة التبعية، كما ينعم قسم الفلسفة هناك بمداخلات عبد الرحمن بدوي عن الاعتزال والزندقة في الإسلام، وجدت نفسي غارقًا في قسم "مدرسي" لا جدوى منه. لكن الضربة الكبرى لدينا كانت في قرارات مجلس الثورة التي أطاحت بالعشرات من أفضل الأساتذة الجامعيين خارج الجامعة، لاعتراضهم على بعض إجراءات النظام ضد الحريات، أو على التدخل في شئون الجامعة التي سبق أن استقال رئيسها أحمد لطفي السيد، حين واجه إلحاح الأزهر على فصل طه حسين... إلخ.

رغم مجيء أصدقاء لي إلى الجامعة بعد العام الأول أو الثاني أمثال محمد الجوهري، ورفقته سعد الدين إبراهيم وغيرهما، فقد كانت صداقاتي المعرفية تتعدى إلى أقسام أخرى لتتوثق مع أمثال عبد الحميد حواس وعبد المحسن طه بدر من قسم اللغة العربية، أو وحيد النقاش من قسم اللغة الفرنسية، فضلًا عن سيد سالم وأحمد الزنط وزملائهم من قسم التاريخ... كانت المجموعات "المعرفية" هذه ذات قيمة كبيرة في تطوير المعارف والمدركات، وأذكر كيف قضيت الساعات مع عبد الحميد حواس نناقش نتائج قراءاتنا

لكتب أسـس الماركسـية مثل "ما العمل"، أو "الدولة والثورة" أو "تطور الرأسـمالية في روسـيا"، دون الاقتراب من منظمات فعليـة... وتطورت قيمـة ذلك كثيرًا عقب العدوان الثلاثي 1956 ودخول مصر إلى السـاحة العربية والإفريقية. وفرض ذلك نفسه على جلسات وصداقات ومناقشات شباب هذه الفترة، وخاصة في موقع أخذ شهرة في هذا الوسط وهو "بوفيه الآداب"... الشهير أو "كافتيريا كلية الآداب". كان يغشاها "فاتنات الآداب" اللاتي يلبس بعضهن أحدث "الموضات"، كما كان يغشـاها شباب الفكر الحديث وكتاب الشـعر الحر... وكان يأتي إليها طلاب الكليات العملية للفرجـة (على البنات طبعًا) وشـعراء وأدباء معروفـون مثل صلاح عبد الصبـور وأحمد عبد المعطي حجازي والصادق محمودي... إلخ. اقتربت مـن البنات بالطبع – مثلما المثقفين – ممن جذبهن أدبي وصمتي، وما زلت أذكر "كوثر هيكل" الإعلامية بعد ذلك – وهي تجر بعضهن وتهرج طوال الوقت متهمة إياي بالخبث. وأدت ظروف بعض الأصدقاء وعلاقاتهم إلى تكوين صداقات خارجية لي من معهد الموسـيقا، على الأقل بسبب ذهابي إلى حفلات الأوبرا الموسيقية، ولم يتدرج أي منها إلى العلاقة الخاصة ولا أعرف لماذا بالضبط...! لكن سـاد شـعور في جيلنا، أن صحبة بنات من باب الزمالة أو الصداقة هو مصدر تقدم أو تحرر، وليس بالضرورة الحب القتال..!

مصر ومعنى باندونج

لا ننسى أني أتحدث عن الأعوام الدراسية الأولى 1955/ 1957... كان عبد الناصر قد قرر بناء زعامته بالفعل متجاوزًا مشكلات الداخل، سياسية واجتماعية، بكثير من الإجراءات الاقتصادية (الإصلاح الزراعي والتمصير وتأميم أموال الأجانب). وكان يعرف أن بناءه السياسي عبر هيئة التحرير والاتحاد القومي لا يشكل – بهؤلاء الانتهازيين من النقابات أو الموظفين – قاعدة شعبية حقيقية، فقرر بناءها عبر الضربات الكبرى... وكان ذهابه بوفد كبير، وملفت – إلى باندونج في إبريل 1955 أولى هذه الضربات. بدا لي أنه يفلت بها من أزمته في السودان حول الانفصال والتوحيد، وما تجر عليه تصرفات "الصاغ الراقص" في جنوب السودان، كما اشتهر بذلك صلاح سالم في الإعلام الأجنبي والساخر، من ضغوط الأحزاب والسياسيين القدامى الذين عاشوا على الإقطاع الزراعي، ويمثل السودان عندهم مصدرًا للري لا السياسة في النهاية. كما بدا لنا أنه أيضًا لا بد كان يحاول أن يستكشف مواقف العالم من الجار الصهيوني الذي تحول إلى دولة قوية تخترق قواتها حدودنا لاختبار مدى قوة الرد وإمكانياته (العدوان على العوجة 1955).

عاد الوفد من باندونج منتعشًا، وبرز نجم محمد حسنين هيكل كمصدر أولي للمعلومات من "فم الرئيس" مباشرة، كما وصلت إشاعات عن غضب إعلاميين كبار مثل حسين فهمي من انفراد هيكل بالرئيس، طوال المؤتمر

هناك، وأن عبد الناصر قال لهم مرة: هيكل يأتي لي بمعلومات ولا ينتظرها مني مثلكم..! وأظن أن محمد حسنين هيكل منذ ذلك الوقت، صار موضع أسرار الرئيس جمال عبد الناصر، وحَجَبَه عن جيل المثقفين في مصر، وهو الذي كان يتحدث بلا مبالاة عن أزمة المثقفين في مصر، والتي كان عنوانها صراعًا بين أهل الثقة وأهل الخبرة وأظنها كانت للرد على انفراد علي صبري بالاتحاد الاشتراكي أو أعضاء المؤسسة العسكرية، مما بقيت آثاره بين الرؤساء المصريين والمثقفين حتى الآن، لعدم معرفة الرؤساء بموضوعية الإعلام وحتى الإعلان عن أنفسهم...

لذلك لم يفهم جيلي جيدًا في ذلك الوقت كيف أن الزعيم الذي وضع الشيوعيين في السجون 54/ 1955، وفي أجواء ثقافية دينية معادية للشيوعية، هو نفسه الذي رفض حلف بغداد 53/ 1954، الذي ربطه الغربيون بالدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعيين والاتحاد السوفيتي، وليس مقرونًا بشروط جلاء الإنجليز عن قناة السويس. كانت المحاولات الأمريكية مستمرة لإغراء عبد الناصر مرة بانسحاب القوات البريطانية، وتهديده مرة أخرى بقبول العراق وتركيا وإيران بالحلف وعزله في المنطقة، ثم جاءت موقعة "العوجة باعتداء الجيش الإسرائيلي على منطقة الحدود والمعبر الهام للفلسطينيين في 28 فبراير 1955 على الحدود المصرية الفلسطينية قرب رفح، تذكيرًا بهذه التهديدات. أقصد هنا التنويه عما أدهشنا من تحول "الزعيم" في مواجهة هذا "الغرب" الشرس، إلى التفاوض في باندونج وعبر الصينيين مع السوفيت، مما اعتبر في مصر بطولة كاسحة للنظام، تحت شعار: "تنويع

مصادر السلاح" إشارة إلى اتجاهنا لجلب السلاح السوفيتي عبر الدول الشيوعية..!

أظن أن مثل هذه الحالة كانت نموذجًا مبكرًا لمشكلة عزلة الجماهير عن تفكير قيادتها الوطنية، حتى تجسدت بعد ذلك في العزلة عن القرارات غير الوطنية، باتجاه السادات إلى المعسكر الأمريكي وكامب ديفيد ...إلخ! وهذه العزلة أو عدم المكاشفة حول القرارات الهامة قد تكون من علامات السلبية أحيانًا، أو مثيرة لحماس الجماهير عند اكتشاف نتائجها أحيانًا أخرى...!

كنا في الجامعة ننشغل بقضايا الآداب والشعر والثقافة، أكثر من أي مشاركة أخرى فيما سمي بتطوير هيئة التحرير، إلى الاتحاد القومي، لاعتبارات تخص "مناهج التعبئة الشعبية" أو قل الأساليب الغوغائية حول الزعيم...! ولم تنشغل القيادة – والحق – بتعبئة شباب الجامعة، لتخوفها من آثار أحزاب اليمين واليسار على الفضاء الطلابي، خاصة بعد مظاهرات 1954. كما أن الدستور المنظم للحياة العامة، كان ما يزال يجري إعداده في مصر حتى صدوره عام 1956 مع إعلان النظام الجمهوري. أظن أن ذلك أبقى على سلبية دور طلاب الجامعات في مصر حتى بداية السبعينيات، رغم خصوبة الحياة الفكرية والثقافية من زوايا متعددة طوال الستينيات. ولاشك أن أعوام 1956/ 1958 – من ناحية أخرى – كانت مليئة بأحداث تحويلية في المجتمع المصري، تشد أي شاب إلى الحياة العامة، ومشاكلها التي تعددت. ويبدو أن حضور عبد الناصر لمؤتمر باندونج، وقد صعد باسمه أكثر إلى

مستويات عالمية جديدة – وفق الإعلام السائد في الداخل وحتى في الخارج، كان أكثر ارتباطًا بالمسألة الوطنية والدولية. ولم نعرف كطلاب قيمة ما تم من إجراءات تنظيم الداخل، مثل إقامة مجلس الإنتاج والخدمات القومي، ومجلس الآداب والفنون للتخطيط للحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، كما كانت إجراءات التمصير عقب العدوان الثلاثي لممتلكات الأجانب من الدول المعادية لمصر، مما كان موضع تعليقات بعض الوطنيين بأن ذلك جزء من تطور الرأسمالية في مصر، وهو ما أفاض سمير أمين في شرحه في كتابه باسمه المستعار حسن رياض "مصر الناصرية" (باريس 1961). لم أشعر في الجامعة بالحديث عن هذه التطورات الداخلية الاجتماعية، قدر ما بدا التركيز على وضع مصر في العالم الخارجي، وخاصة العربي. ولذا كتبت كثيرًا في الفترات الأخيرة عن "معنى وتاريخ باندونج" في مصر والعالم، حيث كان حدثًا تحويليًّا عميق الجذور في حياتنا، وإن لم أشعر به وقتها بهذا العمق، لكني طالما كتبت عنه بعد ذلك تعبيرًا عن تفكيري في هذا الحدث الهام.

وأقصد بالتذكير بباندونج الإشارة إلى العناصر التي أثارت مشاعرنا في الخمسينيات وطبيعة النزوع الوطني في تأييد عبد الناصر على نطاق واسع في ذلك الوقت، خاصة وقد بدت اهتماماتنا في الجامعة فردية لغياب التنظيمات السياسية أو المدنية، ولم يبقَ إلا مجموعات أدبية أو فنية يشارك بعضنا فيها، أو يكتفي بمتابعتها، ولذا كان في نشأتنا الفكرية بالاعتماد على

"بوفيه الآداب" أو المنتدى الأدبي للشعر والنقد في مدرجات الآداب منفذ للتعارف، وتوسيع آفاق المناقشات.

مناقشات وجدل

ساهم في اتساع نطاق هذه المناقشات وجود بعض "الشباب العرب" – وخاصة من لبنان وسوريا في ساحة "البوفيه". أذكر منهم الراحلة نبيهة لطفي (لبنانية قومية ضمن مجوعة قليلة من البعثيين في مصر في ظروف كانت فكرة القومية العربية تقوم بإزاحة الفرعونية والانعزالية في مصر) والتي سعدتُ بصداقتها هي وزوجها المصري القومي علي مختار، لتبعد بعد ذلك وبعض زملائها وزميلاتها عن المعنى الحزبي لهذا الاختبار، مع التطورات والصراعات الدائمة في المنطقة بين العروبة والطائفية من ناحية، أو عسكرة العروبة وماركسيِيها من ناحية أخرى. وشعرنا أن المرأة أنضج وأعلى صوتًا في "الشام" أي المشرق العربي، وكان ذلك مصدر انتعاش بدوره. كما أثرى تلك المناقشات ورود الترجمات والكتب العربية من بيروت النشطة. وكان كشك "مدبولي" في ميدان طلعت حرب – الذي تحول إلى مكتبة ومؤسسة نشر عظيمة الشأن حتى وفاة الرجل – مصدر معرفتنا بكتب الوجودية والماركسية التي كانت ترد إليه من بيروت مترجمة بعد شهر على الأكثر من صدورها في باريس. والسبب مهارة اللبنانيين في ذلك الوقت في الهيمنة على أعمال الترجمة. وكان رجاء النقاش يكتب التقرير الشهري عن مصر

في مجلـة الآداب البيروتية، أقوى المجلات العربية الليبرالية في تلك الفترة بإشراف الدكتور سهيل إدريس. وأعترف – مثل غيري بالتأكيد – أن هذا التقرير كان مصدر إحاطه تحليلية معرفية متميزة بشكل كبير... ولن أنسى منه تحليله النقدي لوضع الأزهر، وتخلفه ورفضه للإصلاح أو التجديد، وآراء القيـادات الثقافية عنه مما أثار جدلًا مثيرًا في المجتمع. وكانت تربط مدبـولي بالمثقفين علاقة خاصة، وقد رأيتُ مرة رجاء النقاش، وهو يأخذ الكتـب والمجلات منه "على النوتة" أي بتأجيـل الدفع، على نحو ما كان يفعل بعض الكتاب الشـبان المعروفين أيضًا. وظلت مجلة الآداب ورجاء النقاش ومدبولي مصدر معرفتـي بالفكر العربي والعالمي لفترة طويلة... وأعقبه في مراسلة المجلة أخوه وحيد النقاش المثقف اللامع الذي افتقدناه مبكرًا، وكان صديقي الشخصي، ومن خلاله أصبحت معظم أفراد عائلة النقـاش، وأذكر منهـم فريدة وأمينة، من مصـادر المعرفة وتبادل النقاش بالنسبة لي.

كانت المناقشات في الكلية وفي "الكافتيريا"، كما كانت ظاهرة المقاهي الثقافية قد اتخذت أنماطًا جديدة ومتعددة، بعد "قهوة المختلط" وسط المدينة (مقهى "ماتاتيا") وسـمعتها عن حوارات ومواقف جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده أوائل القرن العشرين. حيث شمل نقاشهم مبكرًا محاولات تجديد الإسلام وإقامة الحزب الوطني. لكن ما حدث أواخر الخمسينيات وفي السـتينيات عن انتشار أنماط المقاهي الجديدة كان ذلك أوسع تنوعًا، مما سأوضحه في موقع آخر.

كان الجدل الثقافي قد تنوع مع الرغبة العامة – كما قلت – في الانفتاح على العالم الخارجي والثقافة الغربية مجددًا، بل والاطلاع على بعض مصادر التنوع، وبرزت أسماء أساتذة كبار يدفعون في هذه الاتجاهات رغم ثقل يد الجيل السابق. برز لويس عوض في الثقافة اليونانية واللاتينية والتحديث، وعبد العزيز الأهواني في الثقافة الإسبانية عن ضرورة تطوير اللغة العربية وأصول العامية العربية، وأيضًا سهير القلماوي وعبد الحميد يونس في مجال الأدب الشعبي... وفي هذه الأجواء كان قد خرج كتاب محمود العالم وعبد العظيم أنيس "في الثقافة المصرية" (1955) الذي صدر في بيروت (ربما بسبب مقاومة الماركسية في مصر) وقدم له المفكر الماركسي اللبناني حسين مروة. وكان الكتاب يحلل الأعمال الأدبية الكبرى برؤية اجتماعية للثقافة، ثم تعرض لكثير من الأعمال الشهيرة (نجيب محفوظ...) بالنقد الحاد لبعدها عن هذه المفاهيم الاجتماعية. وأحدث الكتاب ضجة هائلة أثارت عميد الأدب العربي طه حسين نفسه بالكتابة عن "يوناني فلا يقرأ" داخلًا المعركة بين العقاد وهؤلاء الشبان الجدد! كان كتاب واحد يستغرق فترة من الزمن شاغلًا كل الساحة، بل وشاغلًا الجيل الجديد والقديم على السواء، وكانت رغبتي في متابعة هذا الجدل عارمة، ونجح الكاتبان في إطلاق معركة الواقعية الاشتراكية أمام الرومانسية، وكيف أن الآداب والثقافة ليسا إلا انعكاسًا لواقع العمل الاجتماعي، أو أنهما من عوامل التفاعل في المجتمع.. إلى آخر ما شاع عن واقعيتهما المتهمة بالسذاجة، ولكنها واقعية تعني الالتزام أمام حركة التحرر والطبقات الشعبية. وكنت وقتها أعبر

الفكر الإسلامي إلى الوجودية وفكرها السارتري، عن الالتزام الإنساني إزاء الحضور الوجودي. ولما كنت لا أمتلك مبلغ 35 قرشـا لشراء كتاب "في الثقافة المصرية" لـ محمود العالم وعبد العظيم أنيس من مكتبة مدبولي، إلا أني استدنت من شبان من أقربائي لأجمع هذا المبلغ الكبير، بل وأسعى للقاء الأستاذ محمود أمين العالم على الأقل. وقد حدث واشتريت الكتاب وقابلت العالم ونشأت علاقة طويلة معه. وأظن أن شطط الموقف المحافظ من كبار المفكرين مثل العقاد من الثقافة الجديدة، أدبًا ولغة، قد أثار قضايا أخرى حول العامية والفصحى وحول الشعر الحر والشعر العمودي، بل وأعلـن عبد العزيز الأهواني أسـتاذ الأدب الأندلسي بعد تأليفه كتابًا عن تاريـخ الزجل في الأندلس، عن موقفه الخاص في اللغة الفصحى وهو ما جعله شهيرًا بعناوين مقالات عن مشكلة العقم الذي يصيب اللغة العربية، مبشرًا أن المستقبل للعامية، لتؤسس للغات جديدة مثلما حدث مع اللاتينية في علاقاتها باللغات الأوربية الحديثة.

قد تكون مثل هذه الشواغل قد شكلت طبيعة اهتمامي مع تنوع المواد التي أدرسها في قسم الاجتماع أو بحضوري في قسم الفلسفة. فكان اهتمامي بعلم الأنثروبولوجيا من ناحية، ودراسـة المنطـق مع زكي نجيب محمود مـن ناحية أخرى. وكان زكي نجيب محمود منطلقًا بالوضعية المنطقية إلى حد رفض المادية الجدلية تمامًا، باعتبارها فلسـفة أو ضمن عملية فكرية، وليست من "تاريخ المنطق". فكان ذلك مثيرًا، ودفعني إخلاصه إلى محبتي له والاقتراب منه مع تشـجيعه لي، إلى حد قبول مراجعة أوراق خاصة لي

عن "نيتشـه"، وعن الفلسفة و"موت الإله"، وتحذيره لي بألا أشتط مبكرًا في التفكـير، وأن أتـدرج في فهم هذه القضايا...إلـخ.. فكان عليَّ بالطبع بحث موضوع "التريث" هذا وصياغته!

أما حكايتي مع علم الاجتماع فتشعبت، لأني كنت أرى أستاذي وصديقي أحمد الخشاب كسولًا، يعرف عناوين كثيرة في مجاله ولا يكلف نفسه متابعتها معنا. وللأسـف أن هذا كان نمط معظم أساتذة هذا القسم بل وشكوى طلاب كثر من الراغبين في التميز، إذ كانوا لا يجدون إلا الرد بالتركيز على الكتاب المقرر. وهذه سـمة تبدو موروثة مـن مناهج التعليم العام القائم على "الحفظ" واختصار طرق الاستيعاب.. وقد يدهش القارئ أن الظاهرة قديمة بهذا الشكل.

ربما لأني كنت أذكر له زياراتي "للرابطة الإفريقية" ومعرفتي من المحيط الطـلابي فيها بالحديـث عن عادات وتقاليد شـعوبهم، فوجدته يتحمس بالقول "حبذا لو قرأت في هذا الاتجاه"... فأخذت أذهب إلى مكتبة الجامعة لأنظر في مدى توفر كتب الأسماء الشهيرة في الأنثروبولوجيا وخاصة أن د. الخشـاب كان يلفتنا إلى أنه والقسم ما زالا متوقفين عند "الأنثروبولوجيا الكولونيالية" وأن عمالقة هذا العلم كانوا في جامعة القاهرة عقب الحرب العالمية... أمثال إيفانز برتشارد، ورادكليف براون، بل ورينيه مونييه نفسه. ساعد ذلك على اكتشاف كتب أساسية للمذكورين من جهة بل ومارجريت ميد ومورجان وفريزر وغيرهم من جهة أخرى. وكلها لا تتحدث إلا عن

"الشعوب البدائية" وثقافتها، وأنا لا أحب بالطبع هذا الاتجاه، وإن لم اكن بعد قد تعرفت على أبعاد المدرسة الوظيفية أو البنائية أو غيرها مما تتصل بالدراسات الأنثروبولوجية عمومًا.

لكن لفت نظري أحد الشباب في "الرابطة الإفريقية" عما نشرته هيئة الاستعلامات، مما اكتشفت أنه ملخص لرسالة الزعيم الكيني جومو كنياتا للدكتوراه في الأنثروبولوجيا باسم "مواجهة جبال كينيا" (Facing Mount Kenya) فسارعت إليه، ووجدت أصوله الإنجليزية في المكتبة، ثم اكتشفت بعده بعض الكتب متضمنة فصولًا عن الفلكلور والثقافة الشعبية فسعيت إليها. وكل ذلك لاختراق عالم التميز في طريقي لهيئة التدريس بالجامعة! وما إن فشلت في ذلك – وفق نظم الكلية من السنة الثانية – حتى كان ذلك فاتحة انطلاقي لعالم الثقافة العامة، ومحاولة أعمق لدراسة متخصصة سواء في الفلكلور أو الدراسات الإفريقية.

السياسة الدولية والجامعة

كان خروج مصر من العدوان الثلاثي 1956 بسلام، باعثًا لرسائل عديدة في المجتمع الثقافي والمجتمع العام عمومًا خلال السنوات التالية. ولن أقدم هنا تفاصيل جديدة حول ذلك لكثرة ما كُتِبَ بهذا الشأن. لكن دعوني أشير على الأقل إلى انقلاب الموقف تجاه المعسكر الشيوعي ووقف الحملات المعادية التقليدية إزاء موقف السوفييت وخاصة الزعيم نيكيتا

خروشوف في هذا الصدد، وإن كان الأستاذ محمد حسنين هيكل لم يوقف يومًا حملات التشويه تجاه هذا المعسكر، ونحن الذين كنا نقرأه صباح كل جمعة في مقاله الشهير "بصراحة". وكانت المواقع الثقافية ملغومة بضباط يوليو الذين لا يتخذون مواقف خاصة في هذا الشأن، مثل يوسف السباعي أو ثروت عكاشة أو سعد وهبة... إلخ، لكن ما كان يبدو غريبًا أن يتصدى لهذا التيار المحافظ، مجموعة صحفيين من مدارس اليسار ممن التفوا حول الضابط اليساري خالد محيي الدين الذي أبعد من "مجلس الثورة"، واهتم بالفكر والثقافة، فأصدر من داخل إحدى المؤسسات الصحفية الرسمية صحيفة جديدة باسم "المساء". وكانت مسائية فعلًا، وتجربة متقدمة في هذا النوع من الصحف، وإذ بها تصبح تيارًا ومصدرًا للعمل الثقافي والفكر الاجتماعي، ومأوى للمظلومين من الصحفيين اليساريين، وداعمة لمبدعيهم على نحو ما اشتهر به الأديب المثقف عبد الفتاح الجمل. لم ألتحق بعالم "ملحق المساء" الثقافي الذي ارتبط به معظم أصدقائنا.

بدأ سفر عديد من الكتاب والشباب إلى بلاد "المعسكر الاشتراكي" أو الكتلة الشرقية. وكان هذا المسمى يعني تقديرًا بالاحترام لهذه البلدان خلافًا لتعبير "المعسكر الشيوعي" السابق، فترة الهجوم المتبادل. وأخذ ذلك يؤثر إيجابيًّا بعرض أفكار النموذج السوفيتي وخاصة في الثقافة ومؤسساتها، لا سيما أن الحركة الشيوعية المصرية بدت موالية تمامًا للفكر الاشتراكي السوفيتي فقط مما يثير دهشتي حتى الآن، وكأن الصين لم تقدم نموذج الثورة الفلاحية أو النضال الطويل ضد الإمبرياليات الغربية. غير أن نوعًا

من "النميمة" انتشر ليقول إن هذا خيار البرجوازية الصغيرة المصرية، منذ تأسيس الحركة عقب الحرب الأولى حتى التراضي مع ضباط يوليو! ولم يكن ذلك سيئًا كله، فقد ذهب الآلاف من أبناء مصر إلى موسكو وبلدان "المعسكر"، وبدأ الحديث عن السد العالي واحتمال التفاوض حول المساعدة السوفيتية لبنائه، كما ذهب الكثيرون لتعلم الهندسة والطب ومختلف العلوم الطبيعية، وساد جو بأن النظام يتحفظ على درس العلوم الإنسانية في هذه الكتلة حتى لا يدرسوا "الأفكار الشيوعية" نفسها ضمن هذه المواد..!

في هذه الأجواء نما عندي تأثير دراسة الأنثروبولوجيا واكتشاف علم الفولكلور مباشرة بين دفتي كتبها. وكنت أعرف في عالم الصحافة عبد المنعم الصاوي في صحيفة الشعب الذي كان يشجع الاهتمام "بثقافة الشعب"، بل ونشر رسالتي إليه يومًا، ففرحت أن ينشر عن اهتمامي وأنا طالب، وذهبت إلى سوق الكتب أبحث عن أدبيات هذا الفن... وسأعود لاحقًا إلى تفاصيل ذلك.

وفي هذه الظروف التحقت بـ"مدرسة الألسن" – الاسم التاريخي لكلية الألسن – لأدرس اللغة والأدب الإنجليزي. ولذلك قصة! فقد كان صديق عائلي يعمل وكيلًا للمدرسة، التي كانت مسائية للخريجين فقط. وكنت أتفاوض معه ليتيح لي دراسة اللغة والأدب الإنجليزي رغم أنني طالب. لكن البيروقراطية المصرية لا تعجز بمهاراتها عن الالتفاف على النظم... فقد اكتشف "مسيو وليم" أنهم سيبدءون في تدريس اللغة

الروسية ذاك العام 57/ 1958، وأنهم اتفقوا على حضور أستاذين روسيين لهذا الغرض، وأن لائحة الكلية تتيح قبول طلاب الجامعة لدراسة اللغات الجديدة خلافا للموقف من اللغات "العالمية" الأخرى، وأنه يستطيع إلحاقي بدراسة الروسية شكليًّا، وحضوري دروس الإنجليزية فعليًّا. وقد كانت تلك من أكبر الخدمات في حياتي الثقافية، وفرحت لذلك كثيرًا. وكان أن ذهبت معه لتنفيذ شرطه الأول بأن أعاونه في حل بعض المشكلات العملية للأستاذ الروسي الجديد وزوجته مثل السكن، أو التعرف على المدينة بدرجة أو أخرى. وسعدت لذلك أيضًا، وتعرفت على الدكتور "كالينين" أستاذ التاريخ وزوجته الأستاذة أيضًا للغة الروسية، وكانا في الخمسينيات من عمرهما. وفهمت أن البروفيسور "كالينين" متخصص في تاريخ "الكنيسة الأورثوذوكسية بالحبشة" ومِنْ ثَمَّ صلتها بالكنيسة القبطية في مصر. وكنت أقرأ بالطبع عن تقسيم الدول الكبرى للعالم العربي حيث كانت الإمبراطورية الروسية تحمي الأرثوذوكس في منطقتنا ضمن مسلسل "الحمايات" الدولية لتركة الرجل المريض... كانت صحبة خير بحق، فقد كان الرجل يحدثني طوال الوقت عن مصر وعلاقاتها في القرن الإفريقي ودور الأباطرة والكنيسة في ذلك، وكانت السيدة الجميلة تحكي لي عن الأدب الروسي الذي شعرت بأن المصريين يعرفون بعضًا منه، عن بوشكين الإثيوبي، أو تولستوي، وجوركي... ممن شاعت أسماؤهم في مصر على نطاق واسع وخاصة بعد الموقف السوفييتي العظيم في دعم مقاومة مصر للعدوان الثلاثي...

شـعرت وقتها بأني لم أخرج من حارة الشـيخ سليم بالسيدة زينب إلى عالم الجامعة فقط، ولكني خرجت إلى عوالم العلاقات الدولية، والجامعة الإنسـانية العالمية التي كنت أردد مع أستاذ الفلسفة توفيق الطويل معنى أن University لا بد لها صلة بالـ Universe، وهو ما أدركه الفراعنة واليونانيون معا مثلما يربط العرب الجامع الأزهر بالجامعة.

تعرفت من هذه الأسرة على بعض معالم النظام الاشتراكي عمليًّا، وعن "غزو" الفيلم المصري للسوق السوفييتي، وخاصة المكانة العالية للنجمة فاتـن حمامة عند الجمهور السـوفييتي، وأعجبهم حـب المصريين للفنون الشعبية والرقص الشعبي الروسي وفي شرقي أوروبا عمومًا. وأثناء نقاش مثل هـذا الجانب وجدته يعطيني يومًا بطاقة تعريف ببعض الكتب، وقد كتب فيها اسم كتاب "الفلكلور الروسي" للبروفيسور يوري سوكولوف، رئيس جامعة موسكو السابق، وأنه وجد اسم هذا الكتاب ضمن بطاقات الكتب التي يفرزها في دار الكتب المصرية، التي يعتبرها كنزا لايقارن. وأن هـذا الكتاب – كما رآه – يتضمن فصـلًا علميًا طويلًا كمقدمة عن "علم الفولكلور" ودراسة عن مدارسه، لا يعرف لها مثيل على نطاق واسع.

وكان الأسـتاذ كالينين يقضي اليوم كلـه في دار الكتب، وكنت أزوره وزوجته أحيانًا في المسـاء لتبادل الحديث أو التمشية، أو تطلب الدكتورة أحيانًا تعريفها بالمحلات الشهيرة في مصر وخاصة للأزياء وأدوات الزينة. ولم تتردد أن تقول دون حساسية أنه "ليس عندنا كل ذلك"، وكانت تدهشني والناس في المحلات العامة بضحكتها العالية الظريفة، وبحرية تأخذني إلى عوالم التحرر الإنساني الحقيقي...

كنت أرجع إلى الكلية، لأعيش نقاشات القوميين العرب، الوافدين بوفرة إلى القاهرة المنتصرة، ليناقشوا حركة القومية العربية، ومعنى وجود حزب البعث كحامل لها. ونسمع عن انتماءات شعراء وكتاب كبار وأساتذة للفكر القومي بل ومعرفة بحزب البعث نفسه. أسماء بحجم عبد العزيز الأهواني وأحمد بهاء الدين... إلخ، وندهش أن السلطة في مصر التي تستفيد زعامتها كثيرًا من تردد النغمة القومية، قد جعلت تحريم الانتظام في البعث مثل الانتظام في الحركة الشيوعية على نحو ما، رغم العلاقة بالمعسكر.

بدا لي أن مشكلة عبد الناصر نفسه ليست مشكلة مع الأفكار بقدر ما هي مع "التنظيم" الذي يضم حاملي الأفكار، لأنه قام بهذه التفرقة مع تقديره للدين من ناحية وتشدده مع تنظيم الإخوان المسلمين من ناحية أخرى، ومثلما حدث مع بعض عناصر الماركسية وإزاء التنظيمات الشيوعية بنهج براجماتي لا ينكر عن عبد الناصر. وهنا كانت العلمانية سائدة دون حرج كبير، كما كانت الماركسية في المجلات ودور النشر، والندوات دون حرج أيضًا، لكن "بعثي" أو "شيوعي".. يوك!

غير أن النظام كان يخدمه أيضًا ويثير حماس الكثيرين منا له بمواقفه الأساسية من مسائل كبرى عربية وإفريقية وعالمية، لم نستطع إلا أن ننجذب إليها، وإن كنت في هذه المرحلة، في الكلية، أريد التخرج أولًا، بأكثر مما أستطيع الانشغال بالأفكار الكبرى وتنظيماتها.

عندما أعلن نجاحي في ليسانس الآداب في يوليو 1958، وعمري حوالي

22 سـنة، لم تكد أمي والعائلة تصـدق أن لها ابنًا قد يصير موظفًا! والابن يحمل الكثير من الأفكار، والمشروعات، وبعض العلاقات التي قد تضعه موضـع الاختبار، أمام خيار أو آخر في هذه الفترة الحرجة من تنمية مصر التي لا تضمن بعد الوظائف للخريجين لكنها تحاول.

كان أمامي أن أنتظر نتيجة الفرز للخدمة العسكرية، وكان ثمة نظام للفرز يعفي أحيانًا من الخدمة، سيئة السمعة، شديدة القسوة، المدمرة لمعنويات المجنـد بما لا علاقة له بوطنيته، بحيث جعلت آمالي كلها مرهونه بإعلان حالتي! وخلال أكتوبر، شـهر عيد ميـلادي الثالث والعشرين أعلن عن إعفائي باعتباري من "سواقط القيد" في الخدمة العسكرية، فأقمت احتفالًا كبيرًا دهش له الأصدقاء ...!

ودخلت بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من حياتي...